وبآخر فاشتر بثمن الأرض بعض المواليد من الغنم ، واعهد بها الى ولد من أبنائك يرعاها عند أطراف المياه حيث العشب الكثير ، فان فعلت ، بلغت أربحك منها أضعاف ما يأتيك من غلة أرضك هذه التي كانت منذ القرون الوسطى وما زالت تزرع ولا تستريح .

« ثم لا تنس حزمة القرى من جارك الجديد ، فأنت تعلم بأنها شيء عزيز يتسناه الشيخ نفسه ، ولا شيء يمنعك من أن تنال مثل هذا الحظ عنده متى شئت » .

وإذ فرغ مما أراد أن يزين للرجل رأيه رفع رأسه وتجه اليه بنظره وهو يقول فيما رد عليه :

« سمعت منك ، ولقد كان لي أن آخذ برأيك الى ما ذكرت من هذه الخطوط الطيبة لو أني استطعت أن أحلها من قلبي محل أرضي على صغرها وقلة جدواها . وما أخفي عليك فقد كنت أصغي اليك وكان في صدري شيء يحدثني معك بما يربطني بها منذ أزمان تتصل بآبائي الأولين ، وإلى أزمان تمضي مع أبنائي الحاضرين ثم تستقبل أحفادي القادمين . وإذا كان لي من رجاء شاكر فانما هو أن توفر عليّ وعليك » .

كان ذلك في عشية من عشيات النور الحالمة ، وكان قد بقي في نفس سالم الربيع شيء من حديث ضيفه ، فكان يتلفت نحو هذا الشيء بأفكاره يرسلها نحوم حائرة كالطير ضلت أوكارها ، وكلما تقدمت العشية واشتد الغسق ، هاجها الشوق إلى الاتجاه الصحيح .

ولكن الماضي لا يتركنا أبداً ، فنحن حين نحز بنا الأيام أو نقف على مفرق الطريق نراه يلمع في خواطرنا حيًّا ومن تلقاء نفسه ، فيمثل لنا سعيداً أو شقيًّا ، ويحدث الينا محرضاً أو منذراً ، وكالأطياف على الشاشة البيضاء نشهده يتحرك في مواكبه المثيرة .

واستطاع سالم في ليلته تلك أن يرى آباءه الماضين ، وأن يعايشهم فيتحدث اليهم ويتحدثون اليه ، ويفهم عنهم ويفهمون عنه ، وأن يتحسس منهم ذلك العيش الذي كانوا يعيشون عليه ، فيجده على بساطته تلك كان وديعاً راضياً مطمئنًّا ، وليس فيه هذا القلق الذي يعيش عليه الناس في يومه . وما أوهن الليل إلا قليلاً حتى كان قد عاد الى نفسه على هدى الأشباح .

وتمضي الأيام فاذا ساحب السعادة وعقبلته ينزلان على شيخ العشيرة ضيفين عزيزين ، وإذ يجيء أوان الطعام وتبسط المائدة السخية لا يمدان اليها يداً وانما يعلنان أن لهما حاجة عرضت ، وإن قضاها عند الشيخ ، فان هو فعل ، كان من طعامه وشكراله ضيفه .

ولم يكن للشيخ من سبيل إلا أن يستدعي سالماً ، وإلا أن يطلعه على ما كان ثم

(٣١) لقد صدق باسكال العالم الرياضي الفرنسي إذ قال اننا نعطف على من كان به اعوجاج في قدمه لسبب ما ولكنا لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره، لان الاول لا بد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه أما الثاني فانه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت اننا على اعوجاج في الفكر — ومع صحة رأي باسكال ينبغي ان لا نعطف مع صاحب الرأي المعوج وان نعطف عليه وان نعتقد أن ذلك من آفة في عقله كآفة القدم المعوجة أو كآفة العمى أو البكم وان نتذكر اننا أيضاً كثيراً ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وان كنا نأبه له.

(٣٢) إن للفكر أخيلة ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الافاضل منهم لا يتحرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم كي يثبتوا صواب فكرهم في أثناء بحثهم إما من شغفهم باثباته وإما النيل المدح من الناس ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلى الصواب فهذا الصواب يكون مثل المهالك التي نزورها في الاحلام وقد نعرف أننا في أحلام إذا فكرنا في طريق الرحلة اليها (وهذا كما في قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الافاضل في البحث العلمي فهو أحرى أن يكون شأن الناس عامة في حياتهم اليومية.

(٣٣) إن أهل الاستكانة تعوزهم الجرأة على طلب حقهم فاذا لم تقم أنت لهم بكل حقهم ركبت الشطط في معاملتهم وسهل عليك الظلم وانتصاب حقوق الناس والرغبة في استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل إذ قد تعد استكانتهم دليلاً على نيل ما يستحقون، ولا أمر يتلف صحة رأي المرء في العدل مثل العيش بين اهل الاستكانة فاذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر ظالمه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتده ظلماً.

(٣٤) يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل لأنه لا أساس له ولا قوة فيه ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى في النفوس ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها وقد تكون لها قوة شر كثيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها — : (وهذا يذكرنا قول تاكري إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التي تحتل مكاناً كبيراً وترسم خطاً طويلاً).

(٣٥) قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والفكر ولكنه إذا صار عادة ونيراً أصبح شللاً لها.

(٣٦) كثيراً ما يؤدي الندم إلى اليأس من أداء الخير مع أن المفروض انه ينبغي ان

يؤدي إلى معاودته والتزمه وربما يؤدي إلى اليأس من أدنى خير لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على حياته كلها فيكون مثله مثل من يدع النقطة من السائل الأسود تغطي على جميع ثوبه بدلاً من ثلاثيها من أول ستوضاء أو كمن يجد سخرة في البحر أو حجارة في نقطة في جزء من الماء فيحسب أنها تدل على المادكله .

(٣٧) إذا أردت أن تقيم عصرك فاقرأ ما يكتب فيه من القصص فان المرء كثيراً ما يريد أن يختفي نفسه في نفس الناس كي يتمادى في وصف الرذائل وصفاً مغرياً يحببها إلى الناس وهو يزعم أنه ينبههم منها .

(٣٨) قد توضح حياة المرء ما التبس في قوله فهو يز التيلسوف الانجليزي الذي زعم أن الدولة هي كل شيء وان الناس إذ أنشأوا الحكومات أسلموا لها كل حق قد اعترف للورد كلارندون أنه إنما فعل ذلك كي يتحبب الى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه ويبدو لي قد نشر رسائل لماكيافيلي يستعطف فيها بعض الأمراء ويتذكر اليهم سوء حاله ويقول فيها إن مبادىء الطغيان التي ذكرها في كتابه (الأمير) إنما ذكرها تزكية لأحاطم في الحكم وانه من أجل ذلك يستحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة وقد زعم كتاب آخرون أن هؤلاء الكتاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق في توحيدها صيانة للأمن وجلباً للوحدة بأية وسيلة حتى الوسائل العنيفة الشديدة (وذلك هو ما زعم ماكولي في رسالته عن ماكيافيلي) — وربما كان الناقصان موجودين في نفس القائل عند قوله ما ذكر .

(٣٩) إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لقف أو خطف وأن يسيء به الظن لأنه لا يعرف سببه والباعث له فانه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لا يعرف منابعه .

(٤٠) بعض القواعد الأساسية في الشرائع لا يعمل بها الناس في حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض فالمبدأ الذي ينص على أن كل متهم بريء حتى تثبت إدانته لا يعمل به الناس وكذلك المبدأ الذي يشرع أن الشك ينبغي أن يجعل في مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس في حياتهم الخاصة فينشأ عن ذلك قلة التسامح ولو عملوا بها كانوا أقرب إلى التقوى والتعقل والتدين

(٤١) لقد صدق جوتا إذ قال في قصة فوست (إن الذي يصمم على أن يعد غير مخطىء إذا كان ذا لسان ذرب وذلك لأن الطلاقة والمهارة في الكلام قد تهزم قوى ملكات العقل.

(٤٢) إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه ومع ذلك فان الناس كثيراً ما يظنون ان الرجل الحقير لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر.